

ذكرى جمال الدين الأفغانى

٩ مارس سنة ١٨٩٧ م

للمستاذ مسنين مسن مخلوف

نهضت مصر ، وكان من الوفاء أن نذكر أول من وضع بذور الحرية فى هذه الديار ، وحمل المصباح ، ونبه المصريين إلى العزة والكرامة والاعتراف من مناهل العلم القديم والحديث ، تلك المناهل الصافية الخالصة لنفع الأفراد والجماعات ، ذلكم هو جمال الدين الحسينى الأفغانى . رجل جاء من بلاد الأفغان فى أواسط آسيا فأيقظ النفوس من رقدتها ، وأعلن الحرب على الجرد ، ودعا الناس أن يفتحوا عينهم إلى ما استنبطته العقول الأوربية من العلم الحديث ، وأن يخلعوا الأكفان البالية فيعيدوا لمصر شبابها ، وينقوا الحضارة الإسلامية من الخرافات .

إحدى وأربعون سنة مضت على وفاة السيد الأفغانى والعوامل الاجتماعية والسياسية وأصوات الحرية تهز الشرق هزاً عنيفاً ، وتهيب بالشرقيين عامة وبالمصريين خاصة ألا يطمئن لهم مضجع حتى يرفعوا رءوسهم ، ويستردوا مجدهم ، ويقفوا مع العالم المتمددين جنباً إلى جنب ، وكادت دعوة جمال الدين تؤتى أبرك الثمرات ، وصيحته تبلغ مداها . لم يكن جمال الدين أعلم العلماء ، ولا أبرع الكاتبين ، ولا أمهر السياسيين ولكنه كان أخلص المخلصين .

رجل تجردت نفسه من مطامع المادة وأدران الصغائر التى تأكل حسنات الشرقيين أكلاً ، وتستولى على أسماعهم وأبصارهم ، وترين على قلوبهم . ذلك داء الشرق الويل .

كان السيد شعلة متقدة من الإخلاص لا يائسها الاتهام من بين يديها ولا من خلفها إلا ما كان من صغائر الحساد وعداوة الذين لا يعقلون . كانت الحكومة

المصرية تجرى على السيد عشرة جنهات شهريا في عهد إسماعيل باشا ومع ذلك لم ينج من نقده رجال الحكومة أجمعون ، وهم أحرار في العشرة الجنيهات تستبقى أو تسترد ، وكانت حكومة السلطان عبد الحميد جعلت له في آخر حياته مرتبا شهريا قدره سبعة وخمسون جنها ، وأسكنته في قصر منيف في استامبول ، ومع ذلك فقد كان السيد أشد على السلطان عبد الحميد من كي النار وقطع السيوف حتى أقض مضجعه ، وانتقد سياسته الغاشمة ما شاء له الانتقاد ، وخرج جمال الدين من الدنيا فقيرا مسكينا كما دخلها فقيرا مسكينا .

قال السيد رشيد رضا نقلا عن الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« إن السيد الأفغانى لم يعمل عملا حقيقيا إلا في مصر ؛ فهو المزلزل الأول لجود الأزهر ، والمصلح للتعليم الإسلامى ، ومؤسس الحزب الوطنى لايجاد حكومة أهلية صالحة . »

و كتب عنه الشيخ محمد عبده :

« هو لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر في الشؤون العامة مما يمس مصالحة البلاد وسكانها ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وأخذت الحرية تظهر في الجرائد . ومن يطلع على أعداد جريدة مصر وجريدة التجارة ومرآة الشرق والأهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا . »

تحدث السيد من أسرة شريفة من بلاد الأفغان - أو الفرس - على خلاف بين المؤرخين في ذلك ، ترتقى إلى الحسين بن على رضى الله عنه ، ودرس العلوم العربية والشرعية والعقلية ، وكان شديد الميل إلى الفنون العسكرية ، ثم صار قائدا في بعض الحروب الأفغانية ، وخرج من بلاده إلى الحجاز ليحج ثم عاد إلى بلاده ، وبعد أحداث وفتن جاء إلى مصر فالتقى بها عصا التسيار سنة ١٨٧١م وكان ذلك في أواخر عصر إسماعيل ف جذب إليه بعض أذكاء الشباب من طلبة الأزهر ولقيفا من كتاب الصحف وأعيان المصريين . وكان مجلسه في قهوة (متايا) أمام حديقة الازبكية أو في المتنزهات أو في منزله ، فسمع الناس ما لم تعهده آذانهم من

حديث العلوم والآداب والمنطق والفلسفة على نمط خاص مغاير لنمط الأزهر ، سمعوا بموقف المسلمين من علوم أوربا ووجوب الاستفادة منها ؛ فاتصل خبره برياض باشا رئيس النظار فقربه ، وحجب إليه الإقامة في مصر وأجرى عليه راتباً قدره عشرة جنيهات شهرياً كما ذكرنا ، فاستقر ثمانى سنوات وهى أطول مدة مكثها فى أثناء طوافه بالشرق وأوربا ، لذلك كان نصيب المصريين من أفكاره الحرة أوفر من نصيب غيرهم من أمم الشرق .

قال عنه أديب اسحاق . من حملة لواء الصحافة فى ذلك العهد :
 « إنه كان يتتبع حركة المعارف الأوربية والمستكشفات العصرية ، ويلم بما وضع اهل العلم ، وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوربا العالية .. »

كان أظهر شئ فى السيد جمال الدين الجاذبية وقوة التأثير فتعلق الناس به ، يحضر مجلسه أشتات من الناس منهم الصحفي والشاعر والطبيب والمهندس ، وبعد أن يتحدث فى الموضوعات العامة التى تشغل بال الناس يجيب عن أسئلة السائلين كالسيل المنهمر لا يتلثم ولا يتوقف حتى يشتعل رأس الليل شياً فيعود إلى داره . وكانت الصحافة وليدة فى مصر ، فحمل تلاميذه على التمرن على الانشاء الأدبى والكتابة الصحافية ونشر محاسن الدين الإسلامى ، والدفاع عنه فى الجرائد من طريق القلم الذى يعتمد على العقل والمنطق ، وقوة الحجة ، ونصاعة البيان أكثر مما يعتمد على النصوص التى لا يؤمن بها الخصم . ثم الكتابة فى السياسة المصرية ونيات أوربا نحو الشرق .

أما الخديو اسماعيل فقد وسع صدره للنقد ورأى فيه طلائع نهضة فكرية كان يسر بها ويشجعها ، وأما وكلاء الاستعمار فى مصر فقد تربصوا بالسيد الدوائر ، وانتظروا الفرص السانحة للسكيد له .

انقادت الطبقة المستتيرة فى مصر من الأدباء والأعيان للسيد جمال الدين فأسس منهم جمعية (ماسونية) . كان يجمعهم خفية ، ويفيض فى نقد الحكومة ، ومقاومة الاستعمار فى الشرق .

وبعد حين تمخضت الحوادث عن (الحزب الوطنى) بزعامة جمال الدين ،

فأوفده الحزب لمقابلة الخديو إسماعيل ، ولما مثل بين يديه ذكر له آمال الأمة في الشئون المختلفة من مالية وسياسية .

ثم عزل الخديو إسماعيل وتقلد الأمر الخديو توفيق فاتهمز وكلاء الدول الفرصة للانتقام من السيد وهم يعلمون أن جمال الدين هو الذي كان ولا يزال يكشف سياستهم ويحذر الناس مكرهم ، فاقضت سياسة الحكومة أن تصدر أمراً بنفيه ، فقبض عليه في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ وهو ذاهب إلى منزله بعد انتهاء السهرة على عادته ، وحمل في الصباح في عربة مقفلة إلى محطة سكة الحديد ، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس ، وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى الهند ، وصدر بلاغ من الحكومة يقول : « إن هذا الرجل رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا ، وينذر كل من يتصل بهذه الجمعية . »

في سنة ١٩٢١ وأنا طالب في مدرسة دارالعلوم ذهبت إلى منزل بعض المعارف لاهنته بالعيد فرأيت شيخاً أحت السنون ظمره من الأسرة الأباطية فعرفت أنه كان من أعضاء الجمعية الماسونية التي أسسها جمال الدين ، وكان من قول هذا الشيخ لي : « إن السيد كان مهيب الطلعة . ولما سمعت بنفيه كنت في الزقازيق فذهبت إلى محطتها لأراه فوجدت الشرطة قد أحاطوا به وأنا عالم بفقره وأنه لا يبقى من المال باقية فأخرجت كيس نقودي ، ودسسته في جيبه ، فترعه مغضباً محتداً وقال : خذ كيسك وإلا القيته تحت القطار . أنا أخرج من مصر وليس في جيبى إلا ريال واحد ، والأسد لا يعدم فريسة حيثما ذهب ، قال المحدث : وخفت على نفسي أن يراني أحد أعطف عليه ، وخشيت المناقشة في ذلك ، فأرجعت كيسي إلى جيبى وتحرك القطار . »

ثم ألزمت الحكومة الإنجليزية بالبقاء في الهند ، وهناك ألف رسالة في الرد على الدهريين ، ولما أخفقت الثورة العراقية ، واحتل الانجليز مصر ، سمح له بالسفر حيث شاء ماعداً مصر ، فاختار السفر إلى أوروبا ، واستقر في باريس ، وكان تلميذه محمد عبده منفياً في بيروت عقب الثورة فاستدعاه إليه ، وهناك أمدّه أعوانه في مصر والشرق بالمال والرأى ، وصاروا أعضاء جمعية (العروة الوثقى)

على ان تكون لها صحيفة تطبع في باريس باللغة العربية بهذا الاسم ، فصدرت
الجريدة حادة الأسلوب يدير سياستها السيد جمال الدين : ويرأس التحرير محمد
عبد ، بسطا على صفحاتها سياسة الشرق والاسلام ، وكانت انجلترا الهدف الذى
صوبوا إليه سهامهما خاصة .

صدرت الجريدة ووزعت في بلاد الشرق ، وما جاء فيها بعنوان (تنبيه)
« وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا
بعذاب أليم . »

« ملعون من يمكن الا جانب من دياره . ملعون من يختلج في صدره ان يلحق
عاراً بأمتة . ملعون من يخون بلاده لمرض في قلبه . ملعون من يبيع أهل ملته
بحطام يلتذ به . عجبا لعجا لاحول ولا قوة إلا بالله . »

فاعلنت الوقائع المصرية أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم خمسة
وعشرين جنيا ، وظل الانجليز يسدون في وجهها باب الشرق ، ويعادون من
يظنون انه يرأسها أو يساعدها حتى نضب موردوها ، وعجز السيد عن إصدارها
بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً .

ظل السيد وتلميذه ثلاث سنوات في باريس ، ثم عاد محمد عبد إلى الشام
فصر بعد أن عفى عنه . أما السيد فقد قصد لندرة وهناك أصدر صحيفة بالعربية
والانجليزية تسمى (ضياء الخافقين) تذكر مساوى الاستعمار وتنتقد استبداد
شاه العجم ، فضاق الانجليز به ذرعاً فوسطوا السلطان عبد الحميد فذهب إليه
مفير تركيا برسالة من السلطان ليحل ضيفاً عليه في الآستانة والرسالة كلها إكبار
وتبجيل فقبل الدعوة ، وأعد له السلطان عبد الحميد قصرأ جميلا . وفرض له
سبعة وخمسين جنياً شهرياً ولكن السيد أحس أنه شبه معتقل ، وأن الخدم الذين
عينوا له من جواسيس السلطان ، فتضرع للسلطان أن يدعه يسافر حيث شاء ، فلم
يسمح له بالسفر ، فأطلق لسانه في نقد سياسة السلطان الاستبدادية ، وصار يته
موئل الأحرار والناقمين على دولة آل عثمان ، وكان من طبع السيد أنه لا يخاف
البطش ولا يعرف مداراة الحكام .

أما رأيه في الإصلاح العلمى والاجتماعى فيتضح من قوله :

« حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقطع مارسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى، مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ألا يتحركوا لطلب مجد، ولا لتخلص من ذل . ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذى حملهم على عدم السعى وراء الإصلاح والنجاح . فلا بد من بث العقائد الدينية الحققة فى الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب . ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قرينة المأخذ لنستمع بها على تقدمنا، لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته . كعلم النحو والبلاغة: يصرف الإنسان جل حياته فى الاشتغال بهما، ولا يقدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم فى نفسه من الأفكار فى إصلاح للوطن، وتعزيز للدين، وتقوية للأمة . »

كان السيد جمال الدين شديد الازم والانتقاد لشاه إيران، فوق انتقاده لعبد الحميد وخرق عبد الحميد، فاشتكاها سفيرها إلى السلطان، فطلب منه الكف عن مهاجمة الشاه . ولكن حدث أن قتل الشاه بعد ذلك، فاشتدت الريبة فى تحريض جمال الدين، فأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه ومنع الناس من الاختلاط به . وقطع عنه الراتب الشهرى فاشتد عوزه، وتضاعف فقره، واشتد عليه مرض السرطان بعد ذلك . ويرجح بعض المؤرخين أنه مات مسموماً؛ إذ أصيب فى أسنانه، واتصل أعوان السلطان بالطبيب الذى يعالجه، فلقح شفثيه بمادة سامة، واشتد السرطان فى فكيه بعد ذلك، فعملت له عملية جراحية لم يراع فى إجرائها واجب الإخلاص والذمة، فتوفى صبيحة الثلاثاء ٩ من مارس سنة ١٨٩٧ م . ولما بلغت الحكومة التركية نعيه أمرت بضبط أوراقه وبدفنه سريعاً من غير احتفال .

حدث الرحالة الروسى الشيخ عبد الرشيد إبراهيم الذى يبشر بالإسلام فى الشرق الأقصى من سنوات، وقد بلغ من الكبر عتياً، أن السيد لما اشتد به المرض دعاه يده لأنه ما كان يستطيع التكلم، وأخذ قلماً وورقة وكتب فيها

« تشهد يا الله أن آخر كلام النبي صلى الله عليه وسلم : أمّتي أمّتي ، وأنا أقول :
ملتى ملتى ملتى . »

ألقى السيد المجاهد في حفرة ، وكانت الأرض تضيق عن نفسه فوسعته حفرة
في رمله . واختفى قبره ، وبقي في القلوب ذكره ، لولا أن قبض الله محسناً أمريكياً
محباً للشرق والإسلام هو المستر كراين بحث بين القبور في مقابر الآستانة عن
قبره ، ولما اهتدى إليه أقام شاهداً فخماً من الرخام سنة ١٩٢٦ م نقش عليه
اسمه ، وهكذا عاش السيد غريباً يحمل هم الشرق كله وبين جنبيه قلب وهبه
لخدمة الشرق والشرقيين ، والإسلام والمسلمين ، فلئن ذهب شخصه وتوالت
السنون على فقدته ، إن الجذوة التي أوقدها لن تتمد أبداً . أسبغ الله على روحه
شآئيب الرحمة والرضوان .

مسنين من مخاوف

